مجلة منتدى الأستاذ

المجلد: 19 العدد: 01 السنة: ديسمبر 2023 الصفحات 267- 286

النّثر الأيوبي المفقود:

"توقيعات صلاح الدين الأيوبي نموذجا"

Lost Ayyubid prose: "Saladin's signatures as a model"

دير بن حرز الله[1]،* صالح مرحباوي[2]

[1] جامعة الحاج لخضر/ باتنة 1 (الجزائر)، wadoud-1980@hotmail.fr

[2] جامعة الحاج لخضر/ باتنة 1 (الجزائر)، salahmerahba@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/05/08 تاريخ القبول: 2023/11/20

الملخص:

اعتنى الباحث بموضوع الكتابة السلطانية في العهد الأيوبي، وحاول الكشف عن مسألة مهمة تتعلق بالتوقيعات الفنية لصلاح الدين الأيوبي–الذي كان متأثراً بأسلوب وأدب وزيره القاضي الفاضل–حيث تطرق إلى مقاربة الحكم على طبيعة هذه التوقيعات إما وجودا أو عدما، وتكمن أهمية هذا البحث في إظهار لبنة من لبنات الأدب العباسي في مراحله الأخيرة، وقد اعتمد الباحث في مقاربته هذه على منهج التتبع والاستقراء، وإجراءات التحليل بالنظر في الأسباب والمسببات. أين اهتدى إلى فرضيتين متباينتين، إحداهما تقضي بعدم وجود هذا الفن من التوقيعات، والثانية تقول بوجوده ولكن لم يصل إلينا فهو في عداد المفقود والمغمور.

الكلمات المفتاحية:

الكتابة السلطانية؛

الدولة الأيوبية؛

صلاح الدين الأيوبي؛

القاضي الفاضل؛

فن التوقيعات؛

ABSTRACT:

The investigation centers on the topic of Sultan's writing during the Ayyubid era, addressing a crucial question: Are there distinct technical signatures attributable to Salah al-Din al-Ayyubi, who may have been influenced by the style and literary contributions of his minister, Al-qadi Al-Fadl? The primary objective of this study is to assess the presence or absence of Ayyubid signature art. This research holds significance as it contributes new information to Abbasid literature in its concluding stages. The methodology employed involves tracking and inductive reasoning, incorporating analysis procedures to examine causes and factors. The researcher considered two hypotheses, one suggesting the non-existence of this signature art and the other proposing its existence but positing that it has not reached us, rendering it missing and submerged.

Keywords:

The Royal writing,
The Ayyubid State,
Salah al-Din al-Ayyubi,
Al-qadi Al-Fadl,
The Art of Signatures ,

* دير بن حرز الله

مقدّمة:

من المفارقات العجيبة التي سيقف عندها كل باحث مُهتم بالتاريخ الأدبي في عهد الدولة الأيوبية، هو التباين الواضح بين عناصر تشكيل المادة الأدبية، وما وافقها من مجال زمني، وعلى اعتبار أنَّ الحكم الأيوبي لم يُعمر طويلا، مقارنة بما عهدته دُويلات أخرى كالأموية والعباسية والفاطمية، حيث كانت مدة ولايته قرابة الثمانين سنة، فهذا يوحي أنَّ مجال البحث في حراكه الفكري والأدبي هو في متناول الغاية المنشودة، لكن سرعان ما تصطدم بالزخم الهائل للموروث الثقافي والأدبي فيه، فضلا عن الكتابة النثرية، فهذا القاضي الفاضل وحده يزن أُمَّة من حيث الإنتاج الأدبي والتأثير الفكري، فكيف إذا امتدَّ بنا الاطلاع إلى نُخبٍ وأقلام كان لها الأثر الكبير في تلك الفترة، على غرار "العماد الأصفهاني" و"ضياء الدين بن الأثير" و"بهاء الدين بن شداد" و"ابن أبي طيء" و"أسامة بن منقذ" و"ابن ممَّاتي"... وكلهم قد أبدعوا وأجادوا، وتركوا رصيدا حافلا من مؤلفات ومصنفات نثرية في شتى المجالات، ويُعد "القاضي الفاضل" صاحب مدرسةٍ ومذهبٍ أدبيٍ، وهو إلى ذلك مستشار الدولة الأيوبية ووزيرها الأول، وقد تأثر "صلاح الدين الأيوبي" بأسلوبه وقلمه إلى حد بعيد، وهذا التقارب الصارخ للظاهرة الأدبية بين الرجلين كان سببا مباشرا للبحث في الجوانب الفنية الشعورية للقائد "صلاح الدين"، وعلى اعتبار توفر المكنة السياسية والمسحة الأدبية المفعمة بالبلاغة وسحر البيان- في بلاط الحكم الأيوبي- ارتأيت أن أبحث في فنِّ التوقيعات لتلك الفترة، وبالرغم من أنَّ قيام الدولة الأيوبية صاحبه نهضةٌ علميةٌ فكريةٌ، دَوَنتها أقلامٌ تنزع إلى الطابع الفني الأدبي، إلا أنَّ الملاحظ في إنتاجهم غلبةُ بعض الأشكال والأجناس النثرية -التي أوْلوها اهتماما كبيرا-كالرسائل بشتى أنواعها، في حين قلَّت بضاعتهم في أشكال أخرى، كالمقامات والتوقيعات هذا الأخير الذي جعل "أحمد أحمد بدوي" يذهب إلى أنَّ هناك توقيعين اثنين فقط للقائد المظفر "صلاح الدين الأيوبي"، وقد استدركت عليه "كفاح وليد" وجود توقيع آخر في كتاب الروضتين لأبي شامة المقدسي مِمَّا جعل الأمر يستقر على ثلاث توقيعات فقط.

على العموم مهما كان من خطأ أو استدراك بغرض الزيادة أو النقصان في محيط الدرس النقدي الذي يتناول هذا الفن النثري، فإنَّ إشارة كهذه من قِبَل "أحمد أحمد بدوي" وهو الضليع المتمرس في أدب الحروب الصليبية - والتي وددنا أنه وقف عندها قليلا بشيء من التفصيل والتدقيق حتى ترسم مَعْلَمها وتُحدد مَظْهَرها- كانت سببا ثانيا أثار حفيظة الفضول لدى الباحث وأورثته سعيا مُلِحًا تتجاذبه إشكالية كبيرة مُؤدَّاها هل عرف العصر الأيوبي هذا الفن من الفنون؟ وقد يتفرع عن ذلك عدة تساؤلات ثانوية، على سياق لماذا لم يتطرق الدارسون والنقاد لهذا الفن تحقيقا وتفصيلا؟ تُرى هل هذه التوقيعات هي من قبيل المعدوم أو المفقود أو المغمور؟ ما طبيعتها في ظل التطور المفاهيمي لها؟ وانطلاقا من هذا التشكيل التساؤلي استعرض الباحث فرضيتين متباينتين، أولهما انعدام فن التوقيعات في العهد الأيوبي إلا من تلك الثلاثة المصرح بها آنفا، وثانيهما وجود هذا الفن في تلك الفترة، ولكن هو من قبيل التراث المفقود والمغمور، وقد كان الهدف من هذه الدراسة، هو الوقوف على مقاربة فعلية ترصد لنا جانبا مهما يتعلق بفن التوقيعات الأيوبية من حيث وجودها أو عدمها، في فترة أقلّ ما يقال عنها أنها واكبت - في حراكها الأدبي والثقافي- ما كانت عليه الدولة العباسية في البدايات. ولما كان الأدب الأيوبي رهين المدونة التاريخية، راكدا

في ثنايا رفوفها، بالرغم من قليل المحاولات التي سعت لتحريره وشرعنة استقلاليته، كان لابدَّ للباحث أن يستعين بمنهج الاستقراء والتتبع ومن ثَمَّ يعمد لآلية التحليل وربط القراءات النقدية والأحكام الهامشية بعضها ببعض، ومحاولة الجرد في الظروف والملابسات التي ساهمت في قَبُول موقف ورفض موقف آخر.

موضوع البحث:

2. البعد المفاهيمي للدراسة:

1.2 الدولة الأيوبية:

قامت الدولة الأيوبية على أنقاض الدولة الزنكية، ذلك أنَّ "نور الدين زنكي" هو الذي أرسل الجيش الشامي إلى مصر لحمايتها من حملات الفرنجة، وكان هذا الجيش تحت قيادة "صلاح الدين" وعمّه "شيركوه" سنة 564هـ[1]، وبعد سلسلة من الأحداث والوقائع المتسارعة كمقتل الوزير الفاطمي "شاور"- الذي كان يخادع ويناور- على يد صلاح الدين، وبعد سقوط الدولة الفاطمية بموت آخر خلفائها "العاضد لدين الله"، ثم وفاة القائد "نور الدين زنكي" 569هـ[2]، عدَّ المؤرخون هذا التاريخ بمثابة التأسيس الفعلي للدولة الأيوبية، واجتمع الأمر على أن يكون "صلاح الدين" هو المؤسس لها، حيث سعى في جمع الكلمة وتوحيد صف المسلمين واسترجاع الأقاليم، وبالإضافة إلى مصر والشام خضعت له سواحل طرابلس وتونس وبلاد النوبة والسودان والحجاز واليمن[3].

2.2 التعريف بشخصية صلاح الدّين الأيوبي:

هو أبو المعالي السلطان الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان[4]، ولد عام (532هـ/1137م) في قلعة تكريت بلدة قديمة أقرب إلى بغداد[5] والأيوبيون ليسوا عربا بالدم والجنس والأصل[6] وقد تربى في حجر والده "نجم الدين أيوب " بداية في الموصل، بعدما كان قد انتقل إليها من تكريت في اليوم الذي ولد فيه صلاح الدين[7]، ومن الموصل انتقل "نجم الدين أيوب" إلى الشام وخاصة إلى بعلبك حيث كان عاملا عليها بطلب من أتابك "عماد الدين زنكي" – هذا الأخير الذي كان يقود حملة شرسة ضد التواجد الصليبي في بلاد المسلمين- ثم استقر به المقام وعاش في البلاط النوري بدمشق وحلب[8]، أين وجد صلاح الدين الشاب الصغير جوًّا مناسبا وهو قريب من عائلة الزنكيين أهل القوة والتحرر، حيث ترعرع وشبَّ على الفروسية وحُبَّ الجهاد، ولما كبر التحق بالقائد الشهيد "نور الدين محمود"، فقاد معه المعارك تلو المعارك أين اكتسب خبرة وممارسة، مِمَّا أهَّله أن يكون هو وعمه "أسد الدين شِيركوه" على رأس الجيش المنتدب إلى الديار المصرية سنة564هـ، قصد حمايتها من التحرش الصليبي، وبعد سلسلة من الأحداث تمَّ لصلاح الدين تأسيس الدولة الأيوبية في مصر569هـ على أنقاض الدولة الفاطمية، ووفاة "نور الدين زنكي" من بعدها 569هـ.

1.2.2 علاقة صلاح الدين بالعلم والأدب:

تتجلى ثقافة "صلاح الدين" العلمية عُموما والأدبية خصوصا، في ثلاث اتجاهات:

– ميولاته للعلوم الشرعية والأدبية، فقد كان يحفظ القرءان و(التنبيه) للإمام "الشافعي"، والحماسة لـ"أبي تمام"، وكان ذاكرا لوقائع العرب، حافظا لأنسابهم، عارفا بسيرهم وأحوالهم، حافظا لأنساب خيلهم، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها[9]

– اهتمامه بالعلماء والأدباء والشعراء حيث كان يقربهم من مجلسه، ويحسن إليهم، ويغدق عليهم بالهبات والعطايا والرواتب، ويجتهد كثيرا في قراءة كتبهم ومؤلفاتهم الشرعية والأدبية كالشعر، وقد استوزر "القاضي الفاضل"[10]الذي كان أمير زمانه في اللغة والأدب.

– الأعمال والخدمات الجليلة التي كان يقدمها "صلاح الدين" للعلم والعلماء، كبناء المعاهد والخوانق والربط وإنشاء دووابن المكاتبات السلطانية لاستقطاب ذوي الكفاءات والثقافات العالية، والصناعة اللفظية، وخاصة مشروع بعث المدارس الذي انتشر بكثرة في عهده.

2.2.2 توقيعات الناصر صلاح الدين:

بالرغم من أنَّ "صلاح الدين الأيوبي" كان شغوفا بالعلم مُحبا له، بما في ذلك الأدب واللغة، وبالرغم من أنَّ مجالسه كانت عامرة بسحر الكلام وفنونه وبديعه من شعر وتَنُدر وفكاهة...إلا أنَّ المصادر التاريخية لم ترصد لنا من إنتاجه الأدبي إلا الندر اليسير منه، في صورة الأقوال وبعض المكاتبات، والعجيب في الأمر أنَّ هذه الندرة في فنِّ التوقيعات لم تقتصر على صلاح الدين فقط، وإنما انسحبت كذلك على خلفاء بني أيوب الذين كان منهم الشاعر النحرير والخطيب المصقع، فكل ما وصل إلينا من توقيعاته رحمه الله هي ثلاث توقيعات جاءت على النسق التالي:

- **التوقيع الأول**: (من ضاع مثلي من يد *** يه فليت شعري ما استفاد).

ومناسبة هذا التوقيع أن دستورا وصل إلى "صلاح الدين" من "عماد الدين"، يطلب فيه الرجوع إلى الديار وأن يعفيه من المشاركة معهم في الحرب، فقد طال انتظارها وهجم الشتاء عليهم فما كان منه رحمه الله تعالى إلا أن وقَّع في آخر الكتاب بهذا التوقيع[11].

- **التوقيع الثاني**: (على خيرة الله، ياليتني كنت معكم فأفوز فوزا عظيما).

وجاء هذا التوقيع بعد كتاب أرسله "القاضي الفاضل" للسلطان "صلاح الدين" يستأذنه فيه بالذهاب لتأدية مناسك الحج[12].

- **التوقيع الثالث**: (وقفت على رقعة القاضي الفاضل، وما نقطع لأحد رزق إن شاء الله تعالى، بل هي علالات نحن مثل الغريم المنكسر، نرضى لذا بمال ذا، وعلى الجملة ما تقدمت بقطع رزق أحد، وقد علمت فيها: اكتب في فيها، الذي لهما ولغيرهما، إن شاء الله).

ومناسبة هذا التوقيع أن "القاضي الفاضل" رحمه، بعث بكتاب للسلطان يشفع فيه لـ "فخر الكُتَّاب الجويني" بأن يقطع له راتبا شهريا يتكفف به عن المسألة، ويعينه على نوائب الدهر، بعد أن نال منه الكبر، وأرهقه السفر، وتعطلت آلة التأليف عنده[13].

3. التوقيعات:

1.3 التوقيع في اللغة:

الوقْعُ: صوت الضرب بالشيء، يقال سمعت وقع المطر ووقع أقدام[14]، وجاء في القاموس المحيط والوقع: وقعة الضرب بالشيء، ووقائع العرب: أيام حروبها، والواقعة النازلة الشديدة، القيامة، ومواقع القطر: مساقطه[15]، والتوقيعات مشتقة في اللغة من التوقيع الذي هو بمعنى التأثير، وعليه فإن التوقيع له أثر مادي كونه يُكتب بالمداد في ورقة ويحمل طابع الإيجاز والأمر بالتنفيذ والإمضاء، وله أثر حسي بحكم أنه يقع في قلب الموجه إليه، إما ترهيبا أو ترغيبا.

2.3. التوقيع في الاصطلاح:

في ظل موجة الدراسات النقدية التي اجتاحت الساحة الفكرية، والمدونة الأدبية على طول امتداد التاريخ الأدبي، وعلى اعتبار مشروعها التقليدي في التقعيد والتأسيس للظاهرة الأدبية، وفي خِضم تراكمات الصدى التفاعلي للنقاد والدارسين في محيط البحث الأدبي، اصطلح على فنِّ التوقيعات بأنَّه كل ما يُوقعه أهل المسؤولية والسلطان في الرقاع والرسائل التي ترد مكاتبهم، وتحمل طابع العوز أو الشكوى أو المظالم، فعند القدامى مثلا عرَّفه "القلقشندي" بأنه: "الكتابة على حواشي الرقاع والقصص بما يعتمده الكاتب في أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة والتحدث في المظالم، وهو أمر جليل ومنصب حفيل"، فلاحظ أنَّ كُلاً من وسيلتي الكتابة، والوسائط المكتوب عليها تُعد من أركان ماهية التوقيعات، ثم إنَّ ميدانها يتعلق بمحيط الدولة ونظام الحكم وما له علاقة بشؤون السياسة وما تفرع عنها، وقد درج النقاد والدارسون إلى يومنا هذا، على الاعتداد بهذا المفهوم، مع شيء في اختلاف الحوامل والقوالب اللفظية، وقد عرَّفه "عمر فروخ": "ما كان الخلفاء يثبتونه من الجمل القصار أعقاب الرسائل التي ترد إليهم من الولاة وسائر الناس ليجيزوا ما في هذه الرسائل"[16].أما "شوقي ضيف" فقد عرَّفها: " وهي عبارات موجزة بليغة تعَوَّدَ ملوك الفرس ووزراءهم أن يُوَقِعوا بها على ما يقدم إليهم من تَظَلُمات الأفراد في الرعية وشكاواهم، وحاكاهم خلفاء بني عباس ووزراءهم في هذا الصنيع، وكانت تشيع في الناس ويكتبها الكُتَّاب ويتحفظونها، وقد سموا الشكاوى والظلامات بالقصص لما تحكي من قصة الشاكي وظلامته، وسُموها بالرقاع تشبيها لها برقاع الثياب"[17].

4. التوقيعات قبل العصر الأيوبي:

لقد تكلم الدارسون كثيرا عن هذا المحور وفصَّلوا فيه القول وأسهبوا، ولذلك اهتمت هذه الدراسة بإيجاز التحرير فيه إلاَّ على قدر ما تصل به الفكرة، التي تكون سببا في ارتكاز البحث عليها، وسيُعفي بذلك إجراءات التدليل والتطبيق وحشو الشواهد والتمظهرات ربحًا للوقت وإغناءً للظرف، ولمن أراد الاستزادة والإكثار فيه، فله أن يقرأ كتاب (خاص الخاص) لـ"الثعالبي" فقد عقد بابا كاملا (السادس)[18] من حوالي ستة عشر صفحة كلها عبارة عن نماذج مختارة لملوك العجم وسادة العرب من فترة ما قبل الميلاد إلى نهاية العصر العباسي، ولك أن تقف على ما جادت به قرائح العرب في هذا الفن من الفنون النثرية، فلعل فيها البغية والاكتفاء.

1.4 التوقيعات جذور وامتدادات:

عُرف فنُّ التوقيعات منذ العهود الأولى لما قبل الميلاد، حيث تطرق "الثعالبي" في كتابه (خاص الخاص) إلى جملة من النماذج والشواهد عزاها إلى ملوك وسادة تلك القرون كـ"الإسكندر المقدوني" و"يعبور" ملك الصين، و"بيطليموس الأصغر" عظيم الروم[19]، وقد تدرج- هذا الفن- أسلوبًا و تقليدًا في دهاليز الحكم، وقوانين التسيير والإدارة، حتى قُبيل الإسلام، وبالضبط في الحضارة الساسانية أيام "كسرى" عظيم الفرس[20] أين اكتسى هذا الفن شيئًا من الشيوع، ولونا من الذيوع. ولئن حظيت بلاد الفرس بقصب السبق إلى اعتماد هذا الشكل من الأشكال النثرية ممارسةً وتطبيقًا[21]في مقابل نظيرتها العربية حتى صدَّرته لها موروثا ثقافيا-فيما بعد-إلاَّ أنَّ التوقيعات الإسلامية تميزت عن نظيرتها الفارسية بشيء من التطور والارتقاء، زانتها تلك المسحات الفنية والسنحات الجمالية، التي تزخر بها اللغة العربية.

2.4 التوقيعات في صدر الإسلام:

ولأنَّ التوقيعات لها ارتباطٌ وثيقٌ بالكتابة، من حيث أنها تعليق موجز يُكتب في أسفل الرسائل الواردة إلى الديوان، أو على ظهرها[22] فإن العهد الأول من ظهور الإسلام لم يكن حافلا بتكريس ثقافة هذا الفن على مستوى أنظمة الحكم، لأننا (لو استعرضنا توقيعات الخلفاء الراشدين لوجدناها لا تتجاوز أصابع اليدين)[23]، وعليه فهو ليس بالشكل المتداول في بلاد الفرس من تقنين وممارسة وكتابة، إلا أنَّ مضمونه كان مُتفشيا في أوساط العلاقات الاجتماعية الشعبية، باعتبار أنَّ العرب أهلُ بلاغة وبيان وإيجاز هذا من جهة، ومن جهة أخرى هو عقلية التواصل والتفاعل التي كانت تتم انطلاقا من المشافهة. ويكفيك أنَّ هاته الفترة بالذات كان لها طابعها الخاص، كونها شهدت نزول كلام رب العالمين على محمد خير المرسلين، بلسان عربيٍّ مبين، وهذا فيه إقرار وتزكية للغة العربية، وممَّا زادها تعزيزا ما قاله "ابنُ الأثير":"وما سُمع بأنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم افتخر بشيء من العلوم سوى علم الفصاحة والبلاغة، فلم يقل إنه أفقه الناس، ولا أعلم الناس بالحساب، ولا بالطب ولا بغير ذلك، كما قال صلى الله عليه وسلم:("أنا أفصح من نطق بالضاد"[24])[25]، ولا يخفى علينا ما مدى بلاغة الأحاديث النبوية الشريفة خاصة تلك الموجزة العبارة، التي إتسمت بنوادر الأسرار، ودرر الأخبار، من مثل قوله صلى الله عليه وسلم :"بعثت بجوامع الكلم" [صحيح البخاري7013][26] ، فانظر إلى أثَرِ ووقْع هذا الحديث على قلبك فهو سهل المخرج لين المدخل، وجيز العبارة، كثير الفائدة، جليل العائدة، فيه النظري والتطبيق، فياله من بيان وإعجاز، تراكم مبناه على معناه فبلغ الخبر منتهاه. وفي عهد الخلفاء الراشدين، بدأت بوادر التدوين والكتابة، فأضحى التوقيع في رسائل بعض الصحابة، وقيل أنَّ (أقدم التوقيعات التي أسعفتنا بها المصادر هي التي وقعها أبو بكر الصديق)[27].

3.4 التوقيعات في العهد الأموي:

أمَّا في العهد الأموي، بدأت تتضح معالم هذا الفن بشيء من الانتشار والكثرة والتعدد، توافقا مع ما طرأ على الحياة السياسية والاجتماعية وحتى العسكرية، ذلك أن الدولة الأموية عرفت نوعا من النفوذ والاتساع جرَّاء الفتوحات والانتصارات حيث امتدت ديار الإسلام نتيجة ذلك بين الصين في الشرق وبلاد الأندلس وجنوبي فرنسا

في الغرب[28]، مِمَّا أدى إلى ظهور العديد من الأسباب والتداعيات- في مستويات شتى - شكَّلت فيما بعد نسيجا مُهمًّا كان له الأثر البالغ في إحداث التحولات والتغيرات، ومِمَّا لاشك فيه أنَّه مهما قيل عن الفترة العبَّاسية من مدح وثناء وإطراء في مقابل نهضتها الفكرية العلمية، فإنَّ مِمَّا يُحسب للدولة الأموية أنَّ لها السابقة والفضل في التأسيس لمشروع الانفتاح على الأخر- طوعًا أو كرهًا- وقد تجلى ذلك في ظهور الأحزاب السياسية واحتدام الرؤى والأفكار والمذاهب...(فهو عصر حافل بالحركات السياسية والحركات الفكرية)[29] على مستوى الجبهة الداخلية، أمَّا على المستوى الدولي الإقليمي، فقد اهتمت الخلافة الأموية بإلزامية التعريب في جميع المكاتبات والدواوين حيث (لم ينقض العصر الأموي حتى كانت اللغة العربية هي السائدة في كل أنواع المكاتبات)[30] مستعينة في ذلك بطبقة فعَّالة مهمَّة كانت نقطة تماس وتحول بين الثقافة الإسلامية وما خامرها من أفكار ومعتقدات دخيلة عنها، في صورة الموالي[31] الذين ساهموا إلى حدٍّ بعيد في خدمة الدين والثقافة وقوام الدولة، وذلك برسم هويتها ونسج مقوماتها-على مستوى اللغة خصوصا- حتى أضحت علَمًا بارزا في المعترك الحضاري، ومن مظاهر ذلك –أيضا- هو سياسة صكِّ العملة بالرسم العربي، التي انتهجها عبد الملك بن مروان[32]،حيث أحدث تغييرا جذريا في أنظمة الحكم، وأساليب الإدارة، (فقد كانت دواوين الدولة ومصالحها الحكومية وأعمالها تُكتب في مصر باللغة القبطية وفي الشام باللغة الرومية وفي العراق وفارس بالفارسية)[33] وقد أدَّى هذا التعريب للدواوين إلى فتح الباب واسعا أمام حركة الترجمة في هذا العهد (وحسبك أن تعلم أن صاحب كليلة ودمنة، والأدب الصغير والأدب الكبير، عاشوا أكثر حياتهم في العصر الأموي)[34]. وهو "عبد الله بن المقفع" الذي ساهم بقسط كبير في الترجمة أيام الخلافة العباسية.

وعليه فلا عجب أن تشهد الدولة الأموية هذا الفن من التوقيعات على اعتبار أنَّه ميدان خصب لخدمات الترجمة من حيث تبادل الثقافات، ومن حيث أنَّه رقمٌ مهمٌ في معادلة النُظم الإدارية التي حكمت تلك الأقاليم ردحا من الزمن، ومِمَّا يزيده تثبيتا وتجلية أنَّ عبد الملك بن مروان قام بتنظيم دواوين الدولة ومؤسساتها[35]وكلها نطاقات وميادين حافلة بفن التوقيعات.

4.4 التوقيعات في العهد العباسي:

إنَّ من سُنن الله عز وجل أنَّ الأمر يستأنفه شخصٌ ما، مُخلصا صادقا فيه، فإمَّا أن يُوَفق إلى تحصيل نتائجه، وقطف ثماره-وهذا حسنٌ مرادٌ- وإمَّا أن يُقضى نحبه وينوبه فيه شخص آخر، فيُكمل المسيرة ويَظفر بالميرة ويحقق النصر، وهذا الذي تمثل جَليًا في قراءة السياق العام لتاريخ الدولتين الأموية والعباسية هذه الأخيرة التي تفجر فيها كل ما تفتق وتعهده الحقل الأموي، انفجارا بلغ الذروة وحاذى القمة، خاصة في محيط الثقافة والفكر والأدب، وقد ساهم في هذا التطور والنماء جملة من العوامل والأسباب التي كست الفترة العباسية شيئا من الظهور والارتقاء، وخلعت عليها نوعا من التفرد والانتقاء، وفي ظل هذا التكتل من النضج والاكتمال، كانت التوقيعات قد بلغت نصابها، وأينعت ثمارها، من حيث كثافة التنوع؛ وخصوبة الدلالة؛ واتساع الأفق؛ ورحابة المسالك؛ وزخم الأغراض والمواضيع... ولا أدلَّ من ذلك مظهرا ووضوحا، أنَّ الساسة والوزراء أولوها رعاية خاصة، فأنشئوا لها ديوانا خاصا عُرف بـ(ديوان التوقيع)[36]،كمنبر هام في دهاليز الحكم والإدارة، يتضمن خطًّا موسوعيا ضخما مُتنوعا يرصد حراكا

هائلا لهذا الفن من حيث التطور والتفاعل والتداخل والتشكل والإنتاج، ويُصدر الظواهر والقراءات والمفاهيم والعيّنات، ويرسم الأبعاد والدلالات الحقيقية للخدمات الجليلة التي يقدمها هذا الشكل في أوساط المؤسسة النثرية.

5. التوقيعات في العهد الأيوبي:

على اعتبار أنَّ الدولة الأيوبية نشأت في ظل الحكم العباسي، والذي كان بمثابة الغطاء الشكلي لسيادة وهمية –نظرا لما آلت إليه الخلافة العباسية من الضعف والوهن– فقد يهم البعض أنَّ حركة التوقيعات الأيوبية قد سايرت في نهجها وصورتها ذاك النمط الذي كانت عليه التوقيعات العباسية من الارتقاء، إلا أنَّ الواقع خلاف ذلك، فكما جاء مُصَدرا في هذا البحث، وكما درجت عليه الدراسات السابقة لحراك الأدب الأيوبي أنَّ فن التوقيعات من بين الفنون التي قلَّ أن تجد له حُضورا لافتا في تلك الفترة، والأدهى والأمر في ذلك هو تلك المفارقة العجيبة بين قتامة قِلَّتها، وتوفر أسبابها وموجباتها من وسيلة كتابية، ومُكنة سياسية للقامات الأدبية. وهذا الذي يزيدك حيرة وتعجبا، فما بال زمن غاب فيه فنُّ التوقيعات وقد توفرت الحاجة إليه والمقومات؟

1.5 التوقيعات الأيوبية في الدراسات السابقة:

من بين الملاحظات المستدركة على الدراسات السابقة للأدب الأيوبي أنه يصعب عليك أن تجد دراسة شافية وافية عالجت موضوع التوقيعات بشيء من التفصيل والتدقيق، بل تعجب كثيرا أن تجد قامات نقدية أدبية مثل "أحمد أحمد بدوي" في كتابه "الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام"، و"حمزة عبد اللطيف" في كتابه"الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي"، و"محمد سلام زغلول" في كتابه "الأدب في العصر الأيوبي"، مِمَّن اشتغلوا على دراسة الحركة الأدبية – خلال فترة الحروب الصليبية – نقدا وتحقيقا لم يُفردوا لها فصلا أو بابا، فأمَّا "محمد زغلول" و"عبد اللطيف حمزة" فلم يتطرقا إلى ذكر التوقيعات في كتابيهما، بل أحسنهما من ذكر الرسائل الديوانية، وذكر أهم روادها وكيف كانوا يتعاطون معها بأسلوب البديع والصنعة، وهو يستحضر الزخم الهائل لرسائل "القاضي الفاضل" ومن كان معه في إدارة الحكم، حيث تكلم عنها بالعموم[37]إلا أنَّ "أحمد أحمد بدوي" كان قد أفرد في كتابه بابا خاصا للكتابة السلطانية، وراح يتكلم عن صورها وأنواعها ومن بينها فن التوقيعات حيث قال فيها: "أما التوقيعات على القصص فقد قل الاحتفال بإيرادها في كتب الأدب، ويظهر أنها وقفت عند حد الفصل فيما يقدم من القصص، من غير أن يراعى فيها أناقة البرامكة وكتابهم، ولذلك ندر أن تعثر على توقيع لملوك هذا العصر ووزرائه"[38]ثم توالت الدراسات بشيء من الاقتضاب والعموم، تعالج نوعا من الإطلاق والأفقية، من ذلك مثلا كتاب (النثر في العصر العباسي سنة 1999م) فقد عقد فيه صاحبه مبحثا بعنوان اضمحلال فن التوقيعات[39] لكنه قرن هذا الأفول لفن التوقيعات بقسط كبير بسقوط الخلافة العباسية على يد التتار، وما ذكره من أسباب لاضمحلال هذا الفن لم يكن له علاقة مباشرة بالعهد الأيوبي، وأمَّا "مصطفى محمود زايد" وفي كتابه القَيِّم (النثر الفني في عهدي الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام2004م) فقد عقد فيه مبحثا عن الرسائل الديوانية، وصرح فيه بندرة التوقيعات حيث قال:"أمَّا التوقيعات فقد قلَّ اهتمام مؤرخي الآداب في هذا العصر بإيرادها في كتبهم، فلم أجد منها إلا القليل النادر" وهاهو "سامي يوسف أبو زيد" في كتابه (أدب الدول المتتابعة2012م)

بالرغم من أن الفترة الأيوبية تندرج ضمن مسمى الدول المتتابعة على غرار الدولة الزنكية و دولة المماليك إلا أنه لم يفصل كذلك في هذا الباب فأقصى ما قاله على فن التوقيعات هي جملة:"ولاشك في أن التوقيعات في هذا العصر تتسم بطولها، وهي أقرب ما تكون إلى المراسيم"[40].

وممَّا تجدر الإشارة إليه في هذا البحث أنَّ كل الدراسات لم تُعط مقاربة شافية لطبيعة فن التوقيعات– في تلك الفترة– لا من حيث أنها مغمورة أو منعدمة أو مفقودة، أو على الأقل تُشير وتوصي بالبحث في تلك الأسباب والحتميات التي أدت إلى هذه الحال، وهذا الذي يجعلك في مواجهة إشكالية واضحة جلية تقوم على سؤالين أساسين: ما هي الأسباب التي حالت دون وصول فن التوقيعات إلينا؟ ثم لماذا لم يتطرق لها المؤرخون بالإخبار والذكر؟.

2.5 ندرة التوقيعات في العصر الأيوبي:

إنَّ الفرضية القائلة أنَّ العهد الأيوبي لم يشهد هذا الفن من الفنون أو ربما شهده لكن لم يكن له الحضور اللافت للانتباه، إنما يُذكيها وينفخ فيها هو تلك الانطباعات الأولية جرَّاء مسح قرائي في الدراسات النقدية للأدب الأيوبي، والتي تجعلك تتيقن بعدم وجوده أو على الأقل ندرته، ذلك أنَّ شكلا نثريا بحجم التوقيعات، له صداه الواسع في التراث الأدبي، وعلاقاته الوطيدة ببلاغة الحجج والبرهان، وروح المعاني ، وسحر البيان ،غير جائز في حقه سِمَة الأُفول وشاكية النسيان، على الأقل من قبيل التلميح والإشارة فيما وصلنا من مصادر أرَّخت للإنتاج الأدبي– في تلك الفترة – وأرْخت عليه صُنوف الشرح والتعليل، وفصَّلت فيه القول والتحليل، ثُم إنه ليس من اللائق أنَّ مُؤرخا وأديبا كأبي "شامة المقدسي" في مُصَنفه "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" يغفل عن ذكر ذلك ويحظره، ولا يليق–أيضا– أنَّ قلما كقلم "القلقشندي" في موسوعته "صُبح الأعشى في صناعة الانشا" والذي اهتم فيه بصناعة الدواوين، وراح فيها بكل ثبات ويقين أن لا يُشير إليه، بل إنَّ ضياء الدين بن الأثير – في عُموم كُتبه– كـ (الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور) و(الوشي المرقوم في حل المنظوم) و(المفتاح المنشأ لحديقة الإنشا)...وهو الذي عُرفت عليه الخوالج النقدية والإصرارات البحثية وقد عاصر تلك الحقبة وخَبِرها، وانتقد ماضيها وحاضرها، لم يتطرق ولو بتلميحات أو إشارات أو حتى إحالات شافية وافية، مِمَّا جعل فرضية أنَّ التوقيعات لم يكن لها حُضورا لافتا في العهد الأيوبي تزداد قوة وتعضيدا، وعليه والحال هكذا فلا بد من البحث في الأسباب والملابسات التي أدت إلى نُدرة التوقيعات وقِلَّتها، لكن ومع طرحنا للأسباب، لابد أن تعلم أخي القارئ أنها– أي الأسباب – من قبيل القراءات والتخمينات، التي لا تعدو النظر في الواقع والمعطيات، وربط الأحداث بعضها ببعض، وسبر العلاقات، أما جزما قاطعا لنا فيه سند وبيان، فهذا الذي لاكته الظنون وعَطَّله خَواء الزمان. وعليه فمن بين الأسباب:

1- منظومة الأخلاق لدى صلاح الدين التي تكاد تنفجر من كل أطرافها عدلا وحلما وسماحة ومروءة...فلا حاجة إلى الغلو والإفراط في تقارير رسمية، ذات وقع وإيقاع حتى تبعث الهيبة والخوف في نفس القارئ، فقد كان رحمه الله قوَّامًا بالعدل والقسط حتى على نفسه، كقصته مع التاجر عمر الخلاطي الذي أدانه بتهمة أخذِ

مُتلكاته[41]، بل كان ذا حلمٍ وتسامح مع رعيته ووُلَاته، وعُمَّال مملكته إلى أبعد الحدود، حتى جعل الله له القَبُول بينهم، وكيف لا؟ وهو كما قيل فيه (أنه كان موهوبا وحلو المعشر قادرا على كسب الناس، مما كان يثير دهشة مستشاريه غالبا)[42].

2- حالة التأهب العسكري، وظاهرة الاستنفار والطوارئ المستمرة، التي فرضت نظاما منتبها قلقا في كل الأوقات، وقد ذكر "عبد المنعم خفاجي" أنَّ الاستقرار عاملٌ مُهمٌ في بعث النشاط العلمي وتطويره حيث قال: " إذلم يعرف هذا المجتمع الاستقرار طوال هذه الفترة مما يتيح له الفرصة للتذكير والتأمل والتعلم فهو إما في حالة حرب أو استعداد لها أو ترقبها"[43] ثم يكفيك أنَّ صلاح الدين نفسه لم يعتمر ولم يؤد مناسك الحج (بسبب ضيق الوقت، وخُلوِّ اليد عما يليق بأمثاله)[44]، وكان أغلب وقته في الحروب والمعارك وحصار الحصون والقلاع...فقد (كان يقاتل الصليبيين على عكا سنتين)[45].

3- عامل العرق والجنس الذي ينتمي إليه غالبية أفراد الحكم الأيوبي أصحاب النفود وصُنَّاع القرار، فهم عبارة عن نسيج وتكتلات من خليط أجناسي مُعظمه من الأكراد والأتراك وعرقيات أخرى، وهذا يستدعي عدم الأهلية في الكتابة لفقد مواردها كضعفهم في حفظ القرآن والسنة والشعر (لأن الولاة والحكام أنفسهم من جنسيات مختلفة لا تتقن العربية)[46] وكانت الإمارة والحكم للأكراد في الغالب، ولا يخفى علينا ما يتميز به شعوب تلك الأقاليم والنطاقات من الانفعال والاندفاع والمباشرة، فال (الكردي عاطفي انفعالي سريع الغضب، سريع الرضا مُندفع، لا يعرف الحيلة ولا الدهاء)[47] وهي صفات تقف سدا منيعا أمام إطناب المعاني البليغة، والنفخ في المباني الرفيعة.

4- انتشار العلم وطلب الحديث والسُنَّة، والاهتمام بالعلماء وطلبة العلم وأهل التعبد، جرَّاء تفعيل سياسة الأوقاف و(بناء المدارس والمساجد ودور القرءان والحديث والخوانق والربط)[48] وإقبال الناس عليها حتى من أهل السُلطة أنفسهم، فقد رصدت لنا كتب التاريخ والتراجم والسير أنَّ كثيرا من القُضاة وكتَبَةِ الدواوين وحتى القادة العسكريين كانوا على ارتباط وثيق بها إمَّا تأسيسا[49] أو تدريسًا[50]، بل من المفارقات العجيبة أن تقتحم نساؤهم هذه الجبهات فيعمدن –هن كذلك– إلى تأسيس المدارس[51]، مِمَّا أورث عقيدة الزهد التي تتنافى وتنأى بنفسها عمَّا يُبَطِّنه فنُ التوقيع من التعالي وإصدار الأحكام الموجزة[52].

5- العامل الزمني المتمثل في قِصر الفترة الأيوبية حيث امتدت من عام 569هـ إلى عام 648هـ، إضافة إلى ظروف النشأة والظهور، على اعتبار أنَّ من كانوا سببا في قيام الدولة الأيوبية كانوا أقرب للأنظمة العسكرية الحربية منها إلى نُظم الإدارة والسياسة، ولذلك منح صلاح الدين وزيره القاضي الفاضل كل صلاحيات التسيير بعد أن تيقن من خبرته وأخلاقه وصدق ولائه.

6- تقليص نفوذ وتسريح الإداريين الذين كانوا حفَظَةً وأُمَناء على دواوين الدولة الفاطمية، وكانوا مُوالين لها، وقد قام بهذه المهمة القاضي الفاضل حيث(تخلص من عدد كبير من الكُتَّاب الشيعة الإسماعيلية

والمسيحيين واليهود وغيرهم)[53] وقد كانوا أصحاب ممارسة وتقاليد لفن التوقيعات في البلاط الفاطمي في حين استنجد بآخرين وانتقاهم بمعيارية الاستقامة والتقوى، لكن يفتقدون التجربة والخبرة الكافية.

7- الطبيعة التأليفية لأصحاب النفوذ والسلطة من الكُتَّاب على غرار القاضي الفاضل وابن العماد وما تميزوا به من حُبِّهم وإيثارهم لأسلوب الإطناب سواء في المعاني أو الألفاظ وهذا كثيرا ما نلمسه عند القاضي الفاضل في (إكثاره من العطف والترادف، وغير ذلك من أساليب التطويل)[54]،أمَّا البقية كابن شداد فقد ألَّف كتابا واحدا–في تاريخ صلاح الدين– هو النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (التزم فيه الأسلوب السهل والعبارة المحددة ولم يلجأ إلى التعقيد واسترسال على نحو ما ألفه عماد الدين الأصفهاني)[55]، ففي كلا الحالتين تقف التوقيعات موقع الجمود والركود.

على العموم كانت هذه قراءات وتحليلات لجملة من الأسباب التي لا يدعي الباحث لها الجزم والحُجِّية، إنطلاقا من كونها تمظهرات وإشارات فرضها نطاق واسع من تداخلات لإحداث ووقائع وسَمَت العهد الأيوبي، وبالجملة فإنَّ ظاهرة كظاهرة الحملات الصليبية التي عرفت أشد حَنَقٍ وحِقدٍ لها في فترات الحكم الأيوبي[56]،فإنَّ حسبك فيها سلامة الدين والثبات على حبل الله المتين، ولذلك نجد أنَّ الصناعة النثرية في ذلك العصر، وافقت هذا الطرح و مشت ضمن خطِّه وإملائه فحافظت على أشكالها الدائمة العضوية، من خطبٍ ورسائلٍ وتآليف تاريخية يستدعيها مقام الطوارئ ، في حين أرجأت الاهتمام بالأشكال الأخرى في صورة المقامات والتوقيعات...إلاَّ في الندر اليسير منها.

3.5 توفر مادة التوقيعات وعدم وصولها إلينا:

تقوم هذه الفرضية على إثبات وجود التوقيعات في العهد الأيوبي انطلاقا من توافر أسبابها وموجباتها، وإنَّما لم يكن لها الحضور اللافت للانتباه انطلاقا من كونها لم تصل إلينا، فقد ذكر ابن شداد أنَّ "صلاح الدين"(كان يجلس للعدل كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً)[57] فانظر إلى سقف اهتمامه بالعدل –رحمه الله تعالى–، فعلى الرغم من أنَّه هَيَّأ له حيزا كبيرا في سياسة دولته، من (تعيين قضاة ذوي سمعة رفيعة)[58]، و تطوير نظام الحسبة وتفعيله[59]، إلا أنَّ ذلك لم يمنعه من أن يشرف هو بنفسه على ضمان سيره وتمام بناء مشروعه –ولا يخفى علينا مدى ارتباط التوقيعات بمهام القضاء و تطلعات إقامة العدل– فقد (كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص فيكل يوم، ويفتح باب العدل، ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات)[60]، ولأنَّ القصص[61] من بين التجليات المهمة التي تعكس المجالات الخصبة لفن التوقيع، كونها مكاتبات تحمل في ثناياها طابع الشكوى واستنجاد الحقوق، وهي بدورها تُرفع إلى الخليفة أو من ينوب مكانه من قُضاة، وكُتَّاب السِرِّ، بقصد التوقيع والتعليم عليها ، فقد عرف العهد الأيوبي زخما هائلا، ورواجا متداولا لهذه القصص، ويكفي أن القائد صلاح الدين (كان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النهار ويوقع على كلقصة بما يجريه الله على قلبه ولم يرد قاصداً أبداً أو منتحلاً ولا طالب حاجة)[62].

فلو فرضنا بعملية بسيطة أنَّ السلطان الأيوبي قد جلس مع كاتبه مائة ساعة فقط –مدة حكمه كلِّها– فيكون الحاصل من التوقيعات الأيوبية مائة توقيع –على الأقل–، وهذا رقمٌ ونصاب مطلوب في محيط الدراسة النقدية الأدبية، وممَّا يزيدك نفَسًا في استجلاب أدلة تُعزز هذا الموقف، هو أنَّ المدونة التاريخية التي تسرد سيرة البطل "صلاح الدين" في تعاملاته سواء مع الفرنجة أو مع ديوان الخلافة العباسية أو حتى مع بعض الأمراء في مملكته مع أنها لم ترصد لنا نماذج حية لتوقيعاته، إلا أنَّ العبارات والصيغ الدالة على التوقيع نجد لها أثرا وذكرا متفشيا، من ذلك مثلا: (بتوقيع السلطان،وبعد توقيع، كتَب توقيعا...)[63] وهذا يفتح الباب على مصراعيه للفرضية القائلة أنَّ مادة التوقيعات كانت موجودة خلال الفترة الأيوبية، وأنَّ عدم التطرق لها في إطار الدرس النقدي يرجع إلى عدم وصولها إلينا، فقد أخبر غير واحد من المؤرخين أنَّ الكثير من الأعمال التاريخية والأدبية طالها شيء من الضياع، على غرار مدونة (البرق الشامي) الموزعة على سبعة مجلدات لصاحبها "ابن العماد الأصفهاني"، والذي لم تحتفظ له الأمانة التاريخية إلا على مجلدين هما الثالث والخامس[64] ، وكذلك بالنسبة لرسائل القاضي الفاضل فقد(فُقِد معظمها، وما وصل إلينا قليل)[65] وهذا الذي تفرضه جملة من الأسباب والدواعي يمكننا أن ندرجها في مايلي:

1- نتائج الحروب الصليبية التي حالت بين الأمة الإسلامية و موروثها الديني والثقافي، وهذا ما سجله التاريخ عبر حلقاته المتواصة المتعلقة بالصراع القائم بين الشرق والغرب في صورة النزعة الصليبية القائمة على الحقد والاستئصال لكل ما يَمُتُّ للإسلام بصلة، وكذلك سقوط الخلافة الإسلامية بسقوط بغداد على يد التتار وما انجرَّ عنه من ذاك الحريق المهول حيث(أُحرقت كُتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون التي ما كانت في الدنيا)[66].

2- الطابع العام للدراسات التي تناولت شخصية صلاح الدين الأيوبي غالبا ما تحكمت فيها العواطف، ممَّا جعلها تُركز على بطولاته وأخلاقه وانتصاراته، بشيء من السردية والتدفق المباشر وبالتالي أرجأت الاهتمام بجوانب أخرى من حياته، خاصة ما تعلق منها بإنتاجه الشعوري الأدبي.

3- قصور آلية التدوين والكتابة في تلك الفترة وانحسارها وحصرها في جبهات خاصة، و الاعتماد على الرواية والمشافهة ممَّا أدَّى إلى ترهل وانقطاع عملية التواصل والتوارث الثقافي، حيث أشارت المصادر إلى أنَّ عددا كبيرا من دواوين الشعراء الشاميِّين بعضها وصلنا مرويا وبعضها جمعه محدثون أما القسم الأكبر لا يزال غائبا[67].

4- سياسة التعتيم والتضليل المقيتة للُّوبيات الصهيونية، والمؤسسات التبشيرية، التي تشتغل أساسا على الحيلولة بين الأُمة الإسلامية ونماذجها من قادة وأعلام[68]، لأنَّ (دراسات المستشرقين لم تتناول من الأدباء والمفكرين والشعراء، من كانت لهم روح قومية، أو من كان لهم دور في حركات البعث الإسلامي العربي في عصر صلاح الدين ومن بعده، وكان هذا الإغفال متعمدا أغلب الظن)[69].

5- السعي إلى تحطيم شخصية بارزة كصلاح الدين الأيوبي، والوقوف كسدٍّ منيعٍ يحول بينه وبين الأجيال، فلعلهم فركوا التراث الأيوبي، وعمدوا إلى فرز كل أثر مادي أو كتابي قد تركه رحمه الله تعالى، فانهالوا عليه

دوسا وحرقا وتخريبا، (فقد أدرك الصليبيون أنه لا يمكن قهر المسلمين إلا بأن يمهد لذلك بغزو فكري، يبلبل فكرهم، ويشوه تراثهم، ويطعن في مُثلهم).[70]

6. الاستنتاج:

إنَّ ما يجعلك تقف مشدوها أمام إشكالية هذا البحث، التي تقوم على نقيضين مُتصادمين، هو استناد كل منهما إلى أدلة تتباين وتتساجل في معترك الدرس النقدي لهما، فعندما تسرد التاريخ الأيوبي مطالعةً وقراءةً وبحثًا فما تكاد تستقرُّ على حُكم ما حتى يظهر لك نقيضه في صورة المتربص المتحين، ذلك أنَّ هذه الأدلة لا تقوم على المباشرة والوضوح، وإنَّما هي من قبيل البحث في القرائن والمعطيات التي لابد للذهن أن يُحسن تصريفها وتوظيفها حتى يسلك بها إلى برِّ الأمان. ومهما يكن من حديث في هذا الباب، إلا أنَّ السِرَّ الذي يجعل الباحث يطمئن ويستقر لفرضية عدم وجود فن التوقيعات في العهد الأيوبي هو اتفاق المؤرخين الذين أرَّخوا للفترة الأيوبية سواء مِمَّن عاصرها في صورة "القاضي الفاضل" و"ابن شداد" ...أو مِمَّن جاء بعدهم كـ "أبي شامة" و "القلقشندي...أو بصورة قوية في محيط الدارسين المحدثين، كـ"محمد سلام زغلول" أو "عبد اللطيف حمزة"، أو "أحمد أحمد بدوي" وكل هؤلاء ينتشون الأدب وجماله وبلاغته حدّ الثمالة، ويستحيل في أسلوبهم وسردهم للوقائع والأحداث التاريخية أن لا يُعرجوا على الملح والنُتف الأدبية، فضلا عن أن يكتبوا ويُصنفوا فيها.

هذا وقد علمنا أنَّ "القاضي الفاضل" كتب العديد من الرسائل ولكنها فُقِدت، فلربما الكثير من المصنفات والمؤلفات والآثار هي في عداد المفقود اليوم، لكن هذا لا يمنع وُرود ذكرها و الإخبار عنها في المصادر والمدونات التي وصلت إلينا–ولو سردا تاريخيا–، وهذا في حدِّ ذاته من بين المناهج التي تُعزز الحكم على هذا الإرث التاريخي من حيث وجوده أو عدمه، وعليه فأغلب المؤرخين والكُتَّاب وبخاصة الذين صنَّفُوا في ميدان اللغة والأدب، أجمعوا بتلقائية منهم على عدم وجود فنّ التوقيعات لتلك الفترة، وهذا الاتفاق منهم لم يكن مُتقصِّدا صُراحا،– كما جاء آنفا– حتى يفتح الباب لردود الأفعال وهبَّات التصادم، أو على الأقل يجعل الانتباه لهذه القضية مبكرا، وإنَّما جاء عفْوا مُتواترا في أقصى ما تكون عليه الحجة من الظهور والدلالة.

الخاتمة:

إنَّ المتصفح للتاريخ الأدبي الأيوبي سيستشعر ذاك الحضور القوي لمقومات فن التوقيع في تلك الفترة، بداية من توفر الاتجاه الفني الأدبي في صورة الشخصيات الأدبية على غرار "القاضي الفاضل" و"ابن العماد" و"ابن الأثير" ...مروروا بمكنتهم السياسية ومناصبهم الإدارية، وقد استطعت أن أستعرض جملة من القضايا المتعلقة بهذا الشكل النثري، خاصة عند "صلاح الدين الأيوبي"، فانطلقت من فرضيتين متباينتين إحداهما تقضي بعدم وجود هذا الفن في ذلك العصر، والأخرى ترى وجوده وحضوره وإنَّما هو في عداد المفقود والمغمور، وبين هذا وذاك، وانطلاقا من احتدام التجاذب والأخذ والرد في معترك سجالية الفرضيتين استثير خلالها النظر في الأدلة والأسباب لكل منه، هذا وقد خلصت في دراستي هذه إلى:

- لم تكن الفترة الأيوبية حافلة بفن التوقيعات وهذه التوقيعات يُقصد بها تلك التي ترقى إلى الطابع الأدبي الذي يتميز بجمال الأسلوب وحضور الفنية، وسحر البلاغة.

- التوقيع الذي ساد في تلك الأوقات، والذي كثيرا ما أُشيرعليه في مُدونة السرد التاريخي، ما هو إلا إشارات خفيفة سريعة كالأختام وما ينوبها، حيث كان (لكل سلطان علامة وتوقيع)[71]، وإلا كيف يمكننا أن نفسر كتابة كمٍّ هائلٍ من التوقيعات ذات البلاغة والبيان في مجلس واحد؟.

- كتب صلاح الدين الأيوبي ثلاثة توقيعات في فترة حكمه تستطيع أن تكون مشروع دراسة في المحيط الشعوري الأدبي له قصد استنطاق معالم شخصيته السياسية والثقافية والشرعية ... في مضامير متعددة ومتنوعة.

- جهاز الحسبة وما كان منه من خدمات فاعلة وصارمة، أعطت حلولا آنية وجاهزة لكل مُعضلة على مستوى القضاء، مِمَّا أضعف التعامل بالمراسلات الرسمية، وجعلها تذوب في مهام استعجاليه سريعة، وهذا يعكس علاقة الجانب التطبيقي للعدالة بفن التوقيعات.

- إنَّ التوقيعات القليلة لصلاح الدين الأيوبي والتي اتسمت بالفنية، والجمالية كانت جلها بينه وبين القاضي الفاضل فقط، وهذا يدل على مساحة أدبية ذات بلاغة وبيان بين صلاح الدين وبين وزيره، فيها من المشاعر والأحاسيس ما ينبغي مراعاته والبحث عليه.

- غلب على المكاتبات الرسمية في البلاط الأيوبي فن الرسائل، وتعددت مواضيعه، وتنوعت على إثرها الأحكام والوظائف فيها، ولذلك قلَّما تجد مؤرخا أرَّخ للتاريخ الأيوبي، لم يتطرق إلى فن الرسائل، في حين لم يتكلموا على فن التوقيعات إلا ما كان منهم في صياغ العموم والإطلاق.

- عندما تُمعن النظر في توقيعات صلاح الدِّين الأيوبي –التي حاكى فيها السياقات الأدبية– تجده لم يكن ليتعاطى معها بذاك الحس الجمالي الفني أو حتى أن يتخذها سبيلا للرد والجواب، لو لم تكن المواقف ذات أثر ووقع في نفسه، فمرة يتحسر عن فوات فضيلة الجهاد والحج، ومرة يتبرأ من ظُلمه للرعية.

المصادر والمراجع:

الكتب:

1- أحمد أمين(دت)، ضحى الإسلام، مج1، (تح) محمد فتحي أبو بكر،(دط)،الدار المصرية اللبنانية.

2- أحمد بن حجر الهيثمي، أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، (تح) أحمد المزيدي، (دس)، (دط) ، دار الكتب العلمية، بيروت.

3- أحمد تاج الدين، (2001)، الأكراد تاريخ شعب وقضية وطنية،ط1، دار الكتب المصرية، القاهرة.

4- أحمد عبد العزيز محمود،(2010)، إجحاف بحق المجاهد صلاح الدين الأيوبي،ط1،مكتب التفسير للنشر والتوزيع، أربيل.

5- إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، عطية الصوالحي، محمد خلف الله أحمد،(دس)،المعجم الوسيط، ج2،(دط)،(دب).

6- ابن الأثير،ضياء الدين،المثل السائر، الجزء2، (تح) محمد محي الدين عبد الحميد،2018م،(دط)، المكتبة العصرية، (دب)

7- بدوي، أحمد أحمد (دت) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام، ط2،دار نهضة مصر، الفجالة،القاهرة.

8- البنداري، الفتح بن علي،(1989) سنا البرق الشامي، (تح) فتيحة النبراوي،(دط)، مكتبة الخانجي، مصر.

9- جمال فوزي(2001) التاريخ والمؤرخون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية،ط1، مكتبة القاهرة للكتاب، مصر.

10- الدواداري، أبوبكر بن أيبك ،كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء7،(تح) سعيد عبد الفتاح عاشور،(1972م)،دط ، دار إحياء الكتب العربية،القاهرة.

11- هاشم مناع ومأمون ياسين(1999)، النثر في العصر العباسي، دار الفكر العربي،ط1، دار الفكر العربي، بيروت.

12- وائل المبحوح،(2017م)، حماس بين الميثاق والوثيقة قراءة في الثابت والمتغير،ط1، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت.

13- زغلول محمد سلام،(1990م)، الأدب في العصر الأيوبي، (دط) ، منشأة المعارف،الاسكندرية.

14- حمود سوزي، الفاطميون والزنكيون والأيوبيون والمماليك وصراعهم حول السلطة في المشرق العربي،(دس)،(دط)، دار النهضة العربية، (دب).

15- طقوش، محمد سهيل(2008)، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، ط2، دار النفائس، بيروت.

16- يوسف بن ثغري بردي(دت)، النجوم الزاهرة، ج7،(دط)،دار الكتب، بيروت.

17- يونس هلال منديل، أدب زهاد التابعين موضوعاته وفنونه،(دس)،(دط)، دار الكتب العلمية، بيروت.

18- كامل محمد محمد عويضة، أعلام الفقهاء والمحدثين الإمام أبو حنيفة،(دس)،(دط)،بيروت، دار الكتب العلمية.

19- ماجد عرسان الكيلاني،هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس،(2006م)،ط3، ،دار القلم، دبي.

20- مجدي فتحي السيد(1998)، تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الأموي، (دط)، دار الصحابة للتراث، طنطا.

21- محمد بن إسماعيل البخاري(2009)، صحيح البخاري، ط1، دار ابن حزم، بيروت.

22- محمد كرد علي،(2020م)، القديم والحديث،(دط)، مؤسسة هنداوي، القاهرة.

23- مصطفى محمود زايد (2004)، النثر الفني في عهدي الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام،ط1،مؤسسة الرسالة، بيروت.

24- منذر الحايك(2011)، العصر الأيوبي قرن من الصراعات الداخلية،(دط)،دار صفحات، دمشق.

25- المقريزي، أبو العباس تقي الدين، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا،ج1، (تح) محمد أحمد عطا،(دس)،(دط)، دار الكتب العلمية، بيروت.

26- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج29/28،(تح) نجيب مصطفى فواز، حكمت كشلي فواز،(دس)،(دط)، دار الكتب العلمية، بيروت.

27- سامي بن عبد الله المغلوث،(2011م)، أطلس تاريخ الدولة الأموية ،ط1مؤسسة العبيكان،(دب).

28- سامي يوسف أبو زيد(2012)، أدب الدول المتتابعة الزنكية والأيوبية والمماليك،ط1، دار المسيرة، عمان.

29- سيد بن الحسين العفاني،(دس)،صلاح الأمة في علو الهمة مج6،(دط)، مؤسسة الرسالة،(دب).

30- السيد الباز العريني(1962)، مؤرخو الحروب الصليبية،(دط)، دار النهضة العربية، القاهرة.

31- عبد الرحمن عزام(2013)، صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني، (تر) قاسم عبده قاسم،ط2، دار بلومزيري، الدوحة.

32- عبد المنعم خفاجي(1983)، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

33- علي نجم عيسى(دت)، حماه في ظل الأيوبيين دراسة سياسية حضارية، (دط)، دار الكتب العلمية، بيروت.

34- العسيري، أحمد معمور، موجز التاريخ الإسلامي،1996م،ط1، الدمام،مكتبة الملك فهد الوطنية.

35- الصلابي، علي محمد (2008م)،صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس،، ط1 ، دار المعارف، بيروت.

36- الصلابي، علي محمد علي(2008)، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار،الجزء1، (دط)، دار المعارف.

37- قاسم عبده قاسم ،علي سيد علي، الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري،دس، دط، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر.

38- شاكر مصطفى(1998)،صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه،ط1، دار القلم، دمشق.

39- شفيق محمد عبد الرحمن الرقب، شعراء شاميون،(2009م)،ط2، دار يافا العلمية، عمان.

40- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) ، (دس) ، ط 16، دار المعارف،(د ب).

41- ابن شداد، بهاء الدين(1994)،(تح) جمال الدين شيال، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ط2،مكتبة الخانجي، القاهرة.

42- ابن شداد، بهاء الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية،(دس)،(دط) ، مؤسسة هنداوي، القاهرة.

43- أبو شامة، شهاب الدين(دت)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج3، علق عليه إبراهيم شمس الدين (دط)، دار الكتب العلمية، بيروت.

44- ابن تيمية،(1994م)، الخلافة والملك،،ط2 ،مكتبة المنار، الأردن.

45- الثعالبي، عبد الملك بن محمد ، خاص الخاص، (شرح) مأمون بن محي الدين الجنان ،(دس)،(دط) ،دار الكتب العلمية، بيروت.

46- خالد يوسف، قصة الأدب العربي،(دس)،(دط)،مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت.

المقالات:

47- باسم ناظم سليمان،(2011م) رسائل القاضي الفاضل دراسة أسلوبية، مقال، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، جامعة كركوك ، المجلد6، العدد2، العراق.

48- سليمان مختار إسماعيل،(2016م)،أدب التوقيعات، مقال، مجلة شمالجنوب، جامعة مصراتة، العدد الثامن، ليبيا.

49- شوكت عارف الأتروشي، (2017م)، تطور نظام الحسبة في العصر الأيوبي، مقال، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، ،مج 8، عد 13، الجزائر.

الأطروحات:

50- أميرة عبد المولى الحراحشة،(2004م)،أدب التوقيعات في العصر العباسي،ماجستير في اللغة العربية وآدابها، قسم اللغة العربية،كلية الآداب والعلوم، جامعة آل البيت، الأردن.

51- عدنان محمد محمود ظاهر،(1990م)، التعليم في مدارس بيت المقدس الإسلامية في العصر الأيوبي،ماجستير أصول التربية، الجامعة الأردنية، الأردن.

الهوامش والإحالات:

[1] الصلابي، علي محمد ،صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس،2008م، ط1، بيروت، دار المعارف ، ص177.

[2]الدواداري، أبوبكر بن أيبك ،كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء7،(تح) سعيد عبد الفتاح عاشور،1972م،دط،القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ص56.

[3] العسيري، أحمد معمور، موجز التاريخ الإسلامي،1996م،ط1، الدمام،مكتبة الملك فهد الوطنية، ص256.

[4]الدواداري، أبوبكر بن أيبك ،مرجع سابق، ص47.

[5] الصلابي، علي محمد ، مرجع سابق، ص225.

[6]طقوش، محمد سهيل، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، 2008م، ط2، بيروت، دار النفائس،ص 17.

[7] عزام ،عبد الرحمن ،(تر) قاسم عبده قاسم، صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني،2013م، ط2، مصر، صحارا للطباعة، ص 42.

[8] قاسم عبده قاسم ،علي سيد علي، الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري،دس، دط، مصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ص22.

[9]طقوش، محمد سهيل ، مرجع سابق، ص218.

[10] هو عبد الرحيم بن علي بن السعيد اللخمي المعروف بالقاضي الفاضل وزير ،من أئمة الكُتَّاب ولد بعسقلان – بفلسطين– وانتقل إلى الإسكندرية ثم الى القاهرة، وتوفي فيها، كان من وزراء السلطان صلاح الدين ومن مقربيه ولم يخدم بعده أحدا، قال بعض مترجميه: كانت الدولة بأسرها تأتي الى خدمته، وكان صلاح الدين يقول: لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل، وكان سريع الخاطر في الإنشاء كثير الرسائل، قيل: لو جُمعت رسائله وتعليقاته لم تقصر مئة مجلد ومجيد في أكثرها...وصفه البغدادي أنه كان ضعيف البنية، رقيق الصورة له حدبة يسترها الطيلسان نزيها عفيفا قليل اللذات كثير الحسنات دائم التهجد. أنظر: باسم ناظم سليمان،(2011م) رسائل القاضي الفاضل دراسة أسلوبية،، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، جامعة كركوك، العراق، المجلد6، العدد2، ص1.

[11] ابن شداد، بهاء الدين،(تح) جمال الدين شيال، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية،(1994م)، ط2، القاهرة،مكتبة الخانجي، ص 222.

[12] أبو شامة، شهاب الدين، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج 3،(دس)، (دط)، بيروت، علق عليه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ص16.

[13] المصدر نفسه، ص37.

[14] إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، عطية الصوالحي، محمد خلف الله أحمد،المعجم الوسيط ،ج2،(دس)،(دط)،(دب)،ص1051.

[15] المرجع نفسه، ج2، ص 773.

[16]المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[17]شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) ، (دس) ، ط 16،(د ب)، دار المعارف،ص489.

[18] الثعالبي، عبد الملك بن محمد ،خاص الخاص، (شرح) مأمون بن محي الدين الجنان ،(دس)،(دط)، بيروت ،دار الكتب العلمية، ص123.

[19] المصدر نفسه ص 123.

[20] هذا موقفُ الذين قالوا بأنَّ فن التوقيع أخذه العرب عن الفرس، كجورجي زيدان، أحمد أمين، شوقي ضيف، أنظر: أميرة عبد المولى الحراحشة، المرجع السابق،ص6.

[21]سليمان مختار إسماعيل،2016م،أدب التوقيعات، مجلة شمال الجنوب، جامعة مصراتة، ليبيا، العدد الثامن، ص35.

[22] أميرة عبد المولى الحراحشة، مرجع سابق، ص5.

[23] هاشم مناع ومأمون ياسين، النثر في العصر العباسي، 1999م،ط1،بيروت، دار الفكر العربي، ص213.

[24] الحديث لا أصل له ومعناه صحيح، أنظر: أحمد بن حجر الهيثمي، أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، (تح) أحمد المزيدي، (دس)، (دط)، بيروت، دار الكتب العلمية، ص59.

[25] ابن الأثير،ضياء الدين،المثل السائر، الجزء2، (تح) محمد محي الدين عبد الحميد،2018م،(دط)، المكتبة العصرية، ص392.

[26] البخاري،محمد بن إسماعيل ،صحيحه، 2009م، ط1، بيروت،دار ابن حزم،ص1297.

[27] أميرة عبد المولى الحراحشة،مرجع سابق، ص10.

[28] الصلابي، علي محمد، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار،الجزء1، 2008م، ط2، (دب)، دار المعارف،ص12.

[29] العسيري، أحمد معمور، مرجع سابق، ص172.

[30] مجدي فتحي السيد، تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الأموي،1998م، (دط)، طنطا، دار الصحابة للتراث، ص310.

[31] خالد يوسف، قصة الأدب العربي،(دس)،(دط)،بيروت، مؤسسة الرحاب الحديثة،ص103.

[32] هو أبو الوليد عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي الخليفة الأموي الفقيه، والمؤسس الثاني للدولة الأموية، والمؤسس الحقيقي للنظام الإداري والسياسي للإدارات الإسلامية في عهد الدولة الأموية. أنظر : سامي بن عبد الله المغلوث،2011م، أطلس تاريخ الدولة الأموية، 2011م،ط1،(دب)مؤسسة العبيكان،ص117.

[33] عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام،1983م،ط2، بيروت، دار الكتاب اللبناني،ص50.

[34] كامل محمد محمد عويضة، أعلام الفقهاء والمحدثين الإمام أبو حنيفة،(دس)،(دط)،بيروت، دار الكتب العلمية،ص29.

[35] الصلابي، علي محمد، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، مرجع سابق، ص665.

[36] أحمد أمين، ضحى الإسلام، مج1، (تح) محمد فتحي أبو بكر،(دس)،(دط)،(دب)،الدار المصرية اللبنانية، ص200.

[37] زغلول محمد سلام، الأدب في العصر الأيوبي،1990م،(دط)،الاسكندرية، منشأة المعارف،ص197.

[38] بدوي، أحمد أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام،(دس)،ط2،الفجالة،القاهرة، دار نهضة مصر، ص 308.

[39] هاشم مناع ومأمون ياسين، مرجع سابق، ص235.

[40] سامي يوسف أبو زيد،أدب الدول المتتابعة الزنكيةوالأيوبية والمماليك،2012م،ط1،عمان، دار المسيرة، ص295.

[41] أنظر قصته عند: ابن شداد، بهاء الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية،(دس)،(دط)،القاهرة، مؤسسة هنداوي، ص14.

[42] عبد الرحمن عزام، صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني،(تر) قاسم عبده قاسم،2013م،ط2،الدوحة، دار بلومزيري،ص268.

[43] جمال فوزي،التاريخ والمؤرخون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية،2001م،ط1،مصر، مكتبة القاهرة للكتاب ، ص17.

[44] ابن شداد، بهاء الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مؤسسة هنداوي، مرجع سابق، ص11.

[45] شاكر مصطفى،صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه،1998م،ط1،دمشق، دار القلم،ص373.

[46] هاشم مناع ومأمون ياسين، مرجع سابق، ص 236.

[47] أحمد تاج الدين،الأكراد تاريخ شعب وقضية وطنية،2001م،ط1،القاهرة، دار الكتب المصرية، ص51.

[48] علي نجم عيسى، حماه في ظل الأيوبيين دراسة سياسية حضارية،(دس)،(دط)،بيروت، دار الكتب العلمية، ص163.

(أُحدثت "المدارس" لأهل العلم، وأُحدثت " الربط والخوانق" لأهل التعبد)، أنظر: ابن تيمية، الخلافة والملك،1994م،ط2،الأردن،مكتبة المنار، ص47.

[49] "أسس صلاح الدين "المدرسة الصلاحية"، وأسس الملك العادل "المدرسة العادلية"، وأسس المعظم عيسى "المدرسة المعظمية"،أنظر: مصطفى محمود زايد،2004م، النثر الفني في عهدي الدولتين الزنكيةوالأيوبية في مصر والشام، 2004م،ط1،بيروت،مؤسسة الرسالة،ص47.

[50] عدنان محمد محمود ظاهر،1990م، التعليم في مدارس بيت المقدس الإسلامية في العصر الأيوبي،ماجستير أصول التربية، الجامعة الأردنية، الأردن،ص97.

[51] أسَّست سِتُ الشام أخت صلاح الدين مدرستين، أنظر: مصطفى محمود زايد، النثر الفني في عهدي الدولتين الزنكيةوالأيوبية في مصر والشام،مرجع سابق، ص48.

[52] يونس هلال منديل، أدب زهاد التابعين موضوعاته وفنونه،(دس)،(دط)،بيروت، دار الكتب العلمية، ص74. (بتصرف)

[53] الصلابي، علي محمد ،صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، مرجع سابق، ص296.

[54] سامي يوسف أبو زيد، مرجع سابق، ص377.

[55] السيد الباز العريني،مؤرخو الحروب الصليبية،1962م،(دط)،القاهرة، دار النهضة العربية،ص203.

[56] حوالي أربع حملات صليبية شرسة وموجهة من الثالثة إلى السابعة شهدتها الفترة الأيوبية، أنظر: حمود سوزي، الفاطميون والزنكيون والأيوبيون والمماليك وصراعهم حول السلطة في المشرق العربي،(دس)،(دط)،(دب)، دار النهضة العربية،ص49.

[57] ابن شداد، بهاء الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية،مؤسسة هنداوي، مرجع سابق، ص13.

[58] أحمد عبد العزيز محمود، إجحاف بحق المجاهد صلاح الدين الأيوبي، 2010م،ط1، اربيل،مكتب التفسير للنشر والتوزيع، ص124.

[59] تجلى هذا الاهتمام في المنشور الذي أصدره صلاح الدين، والذي يقضي بأن يكون المحتسب أمينا، كريم الخلق، مقيما للعدل مؤيداً (مؤديا) للفرائض الدينية، وعلى جانب من الذكاء والفطنة عارفا بأحوال الناس بعيدا عن الأطماع،أنظر: شوكت عارف الأتروشي،2017م، تطور نظام الحسبة في العصر الأيوبي، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر،مج 8، عد 13،ص12.

[60]محمد كرد علي، القديم والحديث،2020م،(دط)،القاهرة، مؤسسة هنداوي،ص327.

[61] القصص هي الرقاع التي يكتبها أصحاب المظالم يحكون فيها ما وقع بهم من ظلم ويسألون رفعه. أنظر:أبي العباس تقي الدين المقريزي، إتعاظالحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا،ج1، (تح) محمد أحمد عطا،(دس)،(دط)،بيروت، دار الكتب العلمية، ص384.

[62] سيد بن الحسين العفاني، صلاح الأمة في علو الهمة مج6،(دس)،(دط)، مؤسسة الرسالة،ص195.

[63] منذر الحايك،العصر الأيوبي قرن من الصراعات الداخلية ،2011م،(دط)،دمشق،دار صفحات، ص46،185،205.

[64]البنداري، الفتح بن علي،سنا البرق الشامي، (تح) فتيحة النبراوي،1989م،(دط)،مصر، مكتبة الخانجي،ص1.

[65] هاشم مناع ومأمون ياسين، مرجع سابق، ص188.

[66] يوسف بن ثغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، (دس)،(دط)،مصر،دار الكتب،ص51.

[67] شفيق محمد عبد الرحمن الرقب، شعراء شاميون،2009م،ط2،عمان، دار يافا العلمية،ص6.

[68] ماجد عرسان الكيلاني،هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس،2006م،ط3، دبي،دار القلم، ص (19-21).

[69] زغلول محمد سلام ، مرجع سابق، ص186.

[70] وائل المبحوح،2017م،حماس بين الميثاق والوثيقة قراءة في الثابت والمتغير،2017م،ط1،بيروت، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ص58.

[71] النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج29/28،(تح) نجيب مصطفى فواز، حكمت كشلي فواز،(دس)،(دط)،بيروت، دار الكتب العلمية،ص235.